

التاريخ الإسلامي في غرب أفريقيا
تحت مطارق الباحثين

هارون المهدي ميغا(*)

وُجدت مفاهيم خاطئة كثيرة عن تاريخ الإسلام وأثره في هذا الجزء من أفريقيا دينياً، واجتماعياً، وثقافياً، وحضارياً، وهي مفاهيم لها دوافع مختلفة، وجوانب عدة أتتْ من قِبَل بعض المثقفين الغربيين وأبناء المنطقة وغيرهم من الذين تأثروا بأولئك، وبخاصة المتغربين منهم واللادينيين والمسيحيين، وكذلك دعاة الزنجيّة، وبعض علماء الآثار الأفريقيين، والقوميّين العرب.

وفي هذه العجالة سوف نقتصر على الجانب التشويهيّ المتعمد لتاريخ الإسلام وحضارة المسلمين في المنطقة، فنعرض أهمّ مظاهره، وأبرز الدوافع إليه من باب التمثيل لا الحصر.

إنّ «صورة انتشار الإسلام عامّة قد شُوِّهتْ من قِبَل كثير من الدارسين، فأُبرزت السلبيات (بل بولغ فيها)، وطمست الإيجابيات؛ ولهذا لا بدّ من إبراز أسباب التشويه ومعالجتها، وإعادة رسم صورته على ضوء مفاهيم وتصوُّرات أكثر استقامة وعدلاً»(١)، وبخاصة في ضوء المستجدّات العلميّة والبحثيّة المتعلّقة بتاريخ المنطقة وحضارتها، وأثر الإسلام البارز فيهما، وكذلك حاجة بعض المصادر الأفريقية التي تناولت هذا التاريخ إلى إعادة فحص ومقارنة وتحقيق علميّ؛ بسبب كون المطبوع منها من نسخة وحيدة ليست الأصلية.

أضف أنّ النسخة الأصليّة أو الجيّدة من هذه المصادر الأفريقية ربما وقعت في أيدٍ لا تقرّ عين أصحابها بظهور الحقائق التي قد تكون - كما يرى بعض أولئك - في صالح شعوب يكنّ لها العداوة، أو يحاول جحد جهودها، أو إخفاءها في تاريخ الإسلام وحضارته بالمنطقة، ويبذل قصارى جهده. حدثني الأخ الزميل د. فاي منصور في عام ١٩٩١م بأنه في أيام إعداده لرسالة الماجستير في التايخ والحضارة عن «مملكة مالي» سافر إلى فرنسا لزيارة مركز وطني فيه الكثير من المخطوطات باللغة العربية تتعلق بغرب أفريقيا، فكانت المسؤولة تُطلعه عليها، وتُترجم له بعض المعلومات إلى الفرنسية، فما أنْ علمتْ بإجادته للغة العربية حتى حالت دون اطلاعه عليها مُكتفيةً بالترجمة له.

ويقول أحمد الشكري: «عند لقائنا في الرباط ٢ أبريل ١٩٩٠م بالمؤرّخ الماليّ محمود الزبير - مدير معهد أحمد بابا للدراسات والبحوث، تنبكو - عبّرنا

(*) باحث من جمهورية مالي - قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة.

(١) انتشار الإسلام في غرب أفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي، د. عزّ الدين موسى، ص ٤٤ ضمن بحوث ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية التي نظمتها في الخرطوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع جامعة أمّ درمان الإسلاميّة؛ ٢٨ - ٣٠ يوليو / تموز عام ١٩٨٣م.



له عن هذا الموقف (كون العديد من الروايات التي يطرحها تاريخ الفتّاش ليست لصاحب التأليف الأصليّ)، فشاطرنا الرأي، وأكّد لي توفُّر نسخة أخرى مخطوطة من تاريخ الفتّاش، تختلف عن تلك المنشورة، وأنّه يعمل بصحبة أحد فقهاء مالي على تحقيقها»[١]. فكم مضى على هذا العمل لو كانا - حقاً - بصدد إخراجه؟!

ومن مظاهر هذا الجانب التشويهيّ: الزعم بأنّ المنطقة لم تعرف الحضارة إلاّ بعد مجيء الاستعمار، بل وصل الأمر ببعضهم إلى إنكار وجود أيّة صلة ثقافية بين أفريقيا جنوب الصحراء وبين شمالها متجاهلاً ما تجمع عليه المصادر العربية والأفريقية وتؤكده من ازدهار القوافل التجاريّة بين شرق وشمال القارة وغربها قبل الإسلام. تلك المصادر القديمة التي تُعَدّ أبرز المصادر الأساس في تاريخ المنطقة؛ بسبب ما تحويه من معلومات مصدرها زيارات شخصيّة للمنطقة، أو أجوبة علمائها وملوكها الذين شرّقوا عن أسئلة تتعلق بها، أو لوفود الحجّ ونحوهم، أو ما تناقلته القوافل التجاريّة والجاليات التي عاشت فيها. يؤيدها كثير من الروايات الشفوية التي دُوِّنتْ أخيراً، أو التي لا تزال تروى من النسّابين الشعبيين، أو تتناقلها الأُسر جيلاً عن جيل.

من أسباب ذلك التشويه ودوافعه: الخلط بين قبول الناس أفراداً للإسلام وبين اعتناق الملوك له، ومن ثمّ عدّ ممالكهم من دار الإسلام، ثم الخلط بينهما من جهة وبين قيام الحركات الإصلاحية الداخلية والخارجية (الجهاد)، وقد يحكم أولئك على المسلمين بما يحكم به على ملوكهم الذين لَمّا يسلموا[٢]؛ فكان نتيجة هذا الخلط تشويه المفاهيم «حتى إنّ قضيّة انتشار الإسلام في غرب أفريقيا لا تجدها تدرَّس إلاّ في إطار السلطة الغالبة، والقوّة الظاهرة، وبها ومعها؛ فحسب هذه المفاهيم يبسط الإسلام سلطانه، وتذاع في الناس تعاليمه، وتنتشر بينهم راياته إذا كانت له دولة ترعاه، وفي غياب مثل هذه الدولة يغدو النكوث عن الإسلام إلى الديانات التقليديّة هو البديل الماثل، وفي أحسن الفروض تكون المزاوجة بين الإسلام وتلك الديانات هي الطريق إلى تخليط يُبقي من الإسلام اسمه، ويمحو معالمه وأثره»[٣].

فليس من الصواب ما قاله د. زبادية: «وتتفق الروايات على أنّ إسلام مكان ما كان يتمّ حين يعلن الأمير، أو رئيس القبيلة، أو النبيل في عشيرته إسلامه فيتبعه جميع أفراد رعيّته»[٤].

فكم من ملك أسلَم شعبه وهو لـمّا يسلِم؛ كما في حال غانا مع وجود عدد كبير من المسلمين والمساجد والوزراء في عاصمتها، بل نصف المدينة كان خاصاً بالمسلمين، وكمدينة «جنّي» التي حشد ملكها عدداً كبيراً جداً من العلماء ليعلن إسلامه بين أيديهم[٥].

وكم ملك أسلم دون شعبه؛ وكم ملك كان يتردد في اعتناق الإسلام خوفاً من شعبه الذي لـمّا يسلم، أو لا يعلن ذلك حتى يضمن انقيادهم[٦]؟ كلّ ذلك لا يتعارض أو يقلل من أهميّة إسلام الملك وما يزيده من قوّة الانتشار وخوف الجانب.

(١) الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطوريّة مالي، أحمد الشكري / ٣٢ هامش ٤٦، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١ عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) انظر: الملامح المغربية في الثقافة الأفريقية خلال القرن السادس عشر /١٧٤ مجلّة دعوة الحق (المغرب) عدد ٢٨٣ جمادى الأولى والآخرة، عام ١٤٠٩هـ - يناير ١٩٨٩م، للدكتور محمد الغزبي.

(٣) انتشار الإسلام في غرب أفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي / ٤٤ - ٤٥، ٤٨.

(٤) مملكة (سنغاي) في عهد الأسقيين / ٨١.

(٥) انظر: تاريخ السودان للسعدي / ١٢.

(٦) انظر: انتشار الإسلام في غرب أفريقيا / ٤٩ - ٥٠، والإسلام والمجتمع السوداني / ٩٩ - ١٠٠.



لنأخذ مثالاً على ما تقدّم قصّة دخول الإسلام إلى مملكة مالي؛ فبعض الدارسين يرون أنّ الإسلام انتشر في هذه المملكة على يد الخوارج الإباضيّة التي كانت لها دولة في فزّان وغدامس وبعض واحات الجزائر منذ القرن الثامن الميلادي. وإليك بعض الأدلّة على عدم صحتها وبيان ما فيها من الخلط المذكور، فأقول:

١ ـ تأكّد بما لا يدع مجالاً للشك انتشارُ الإسلام في الغرب الأفريقي قبل التاريخ المذكور لهذه القصة (القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).

٢ ـ هذه القصة نفسها تؤيد الخلط بين بداءة وصول الإسلام إلى هذه المملكة وغيرها وإسلام شعب، أو أفراد منه وبين إسلام الملوك، ومن ثمّ عدّ ممالكهم إسلاميّة؛ فقد كان انتشار الإسلام بين (الماندينغ) متقدِّماً على إعادة تأسيس المملكة على يد ماري جاطة (سوندياتا كيتا ٦٢٨ ـ ٦٥٢هـ ـ ١٢٣٠ ـ ١٢٥٥م)، وكذلك كان متقدماً على تاريخ وصول هذا الذي يُزعم إسلام ملك مالي على يديه إلى المنطقة ٥٧٥هـ ـ ١١٧٩م. فالبكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت ٤٨٧هـ ـ ١٠٩٤م) يذكر أنّ هذا الضيف كان عند الملك يقرأ القرآن، ويعلّم السنّة[1]، فما هي السنّة التي كان يعلمها غير سنّة الرسول ﷺ؟ ولمن كان يعلّمها إذا لم يكونوا من حاشية الملك الذين أسلموا، ولمّا يسلم هو؟ ألا يحتمل أن يكون الملك من الفئة التي قد تخفي إسلامها لعدم إسلام معظم الشعب بدليل قبوله تعليم القرآن والسنّة في مجلسه وبحضوره؟

٣ ـ ليس بصحيح ما نقله بعض المؤرخين (أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشمّاخي ت ٩٢٨هـ ـ ١٥٢٢م، وكان من علماء الإباضيّة في المغرب) وغيره من أنّ بلاد السودان الغربي وإمبراطوريّة غانا كانت تدين بالإباضيّة قبل أن يقصدها مخالفوها لردّ أهلها عن مذهبهم الإباضيّ[2]؛ لأنّ الثابت أن الذين نقلوا الإسلام إلى المنطقة منذ القرن الأوّل الهجري لم يكونوا إباضيين، كما لم يكونوا صوفيين. فمن أين كان لها الأسبقيّة المزعومة؟ وكيف؟.

٤ ـ تناقض الروايات في تحديد بداءة علاقة الإباضيّة تجاراً وفقهاء بغرب أفريقيا بين القرن الثامن، أو التاسع، أو العاشر الميلاديّة[3]. وتناقضها ـ أيضاً ـ في المملكة التي أسلم ملكها في القصة أهي مالي أم غانا؛ فعند البكري أنّها مالي من غير أن يقول إنّ الضيف إباضيّ، بل ذكر أنّه ضيف من المسلمين، فإذا انضم إلى هذا كَون البكري من مصادر الشمّاخي الذي زعم إباضيّته[4]، وتعليمُ هذا

(١) انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ١٧٨، مكتبة المثنى، بغداد، بدون ت، ن.

(٢) انظر: دور فقهاء الإباضيّة في إسلام مملكة (مالي) قبل القرن الثالث عشر الميلادي، د. أحمد الياسين حسين، / ٩٥ من بحوث: ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية.

(٣) انظر: دور فقهاء الإباضيّة ص ٩١، ٩٨، وانظر: القصة في: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب / ١٧٨، ودور فقهاء الإباضية / ٩٥، و١٠٣ ملحق ٣، والثقافة العربية الإسلامية في الغرب الأفريقي، عمر محمد باه /١٤٥ ـ ١٤٦، مؤسسةالرسالة، ط١ عام ١٤٢٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٤) ومن مصادره الدرجيني أحمد بن سعيد بن سليمان (ت ٦٧٠هـ ـ ١٢١٧م) الذي حدد التاريخ بسنة ٥٧٥هـ ـ ١١٧٩م، وفي روايته أنّ كلّ أهل المملكة مشركون، انظر: نصّه في دور فقهاء الإباضيّة ص ١٠٢ ملحق ٢، فإذا كان البكري أقدم من الدرجيني الذي جاءت روايته في القرن السابع الهجري موافقة لمذهبه الإباضي ومتناقضة مع وصول الإسلام إلى كلّ من غانا ومالي منذ القرن الأوّل الهجريّ، أفلا تكون هذه وغيرها مطعنا في صدق نقله؟



الشيخ للسنّة، ودعوةُ الملك إلى الاعتقاد بشرائع الإسلام كلّها من غير إشارة إلى الإباضيّة تبين أنّ هذا الضيف على مذهب السلف لا الخوارج الإباضيّة، وتأكُّدُ دخول الإسلام إليهما قبل هذا التاريخ، أو على افتراض كونه منها فإنّه بناء على تصرفاتهم لم يكن يدعو إليها[1] في وسط سبقها إليه مذهب آخر نما وتقوّى.

٥ ـ شهادات الخوارج أو الشيعة لا تدل على أنّ دعاتهم كانوا يمارسون دعاية لمعتقداتهم في بلاد السودان، وإنّما تنوّه فقط بنشر تعاليم الإسلام، ولو كان قبيل أو شعب من المنطقة قد اعتنق أحدهما لكانت مصادر هذه الطوائف أوّل من يهتمّ بتسجيل هذا الإنجاز أوّلاً بأوّل، كما هو الغالب في كتابات علماء كلّ مذهب، والمصادر على اختلافها لا تتحدّث عن اعتناق فئة من أبناء السودان الغربي لهذين المذهبين[2].

ومن مظاهر التشويه: الاستدلال ببعض التقاليد والأعراف ـ كمواسم نصب السلطان، والمثول بين يديه، ووضع التراب على الرأس إظهاراً للخضوع، واستخدام الطبول، وغيرها من الأمور التي وجدت حيناً في إمبراطوريّات غانا ومالي وسنغاي، وكذلك بعض مظاهر الصوفيّة: كالتبرك بالأولياء، وقراءة القرآن على الأموات، وإقامة الولائم في المآتم، ووجود بعض المشعوذين ـ الاستدلال بها على نفي أثر الإسلام الإصلاحيّ والحضاريّ في المنطقة، أو التقليل من شأنه وتقزيمه بعبارات « الإسلام الأسود » أو « النموذج الأفريقي للإسلام » أو « المزاوجة بين الإسلام والديانات الوثنيّة الأفريقية » أو « الإسلام السطحيّ » ونحوها؛ وكلّها تهدف إلى الزعم بوجود إسلام لا يبقى منه إلاّ اسمه، وسيادة الوثنيّات قولاً وعملاً إلاّ ما ندر؛ فقد اتخذ تلك الأمورَ « بعضُ المضللين من الباحثين الذين يتعمدون تجاهل المدّ الإسلاميّ الحضاريّ في توجيه وتقويم الأحداث التاريخية وشؤون الحياة لمنطقة السودان الغربيّ... . ثم التشكيك حول تاريخ مسلمي هذا الجزء من العالم الإسلامي »[3]، ومن تفاعلهم معه وتطبيقهم له على الوجه الصحيح في مختلف شؤون الحياة. والحق أنّ الإسلام شمل مختلف جوانب الحياة حتى لغير المسلمين من سكان المنطقة[4]، وإليك أمثلة من هذه المظاهر:

يقول د. محمد الغربي: « الواقع أنّ الإسلام وإن كان قد طبع التاريخ الأفريقي والحضارة الأفريقية بطابعه المميّز فإنّه كان مع ذلك نموذجاً أفريقياً؛ فسكان القرى والبوادي لم يكونوا يعرفون إلاّ النطق بآيات القرآن دون فقه لمعنى ما يحركون به ألسنتهم، وكانوا يمسكون في رمضان من الفجر إلى غروب الشمس، ويتقربون بالذبائح والقرابين والنذر، ولكنّهم إلى جانب ذلك كانوا يعبدون قوى الطبيعة، ويقدسون الأصنام والأيقونات، ويؤمنون بأقوال الكهان والسحرة »[5].

(١) انظر: حركة التجارة والإسلام / ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) انظر: الإسلام والمجتمع السوداني / ٢٢٦، ٢٢٧.

(٣) أسكيا الحاج محمد وإحياء الدولة الإسلامية للسنغاي، د. فاي منصور /٧٣، رسالة دكتوراه من قسم التاريخ والحضارة، كليّة اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٤) انظر: المرجع نفسه /٧٣، ١٧٩.

(٥) الملامح المغربية في الثقافة الأفريقية خلال القرن السادس عشر، ص ١٧٣ مجلّة دعوة الحق (المغرب)، وانظر: مملكة (سنغاي) في عهد الأسقيين، د. عبد القادر زبادية / ١٣٥ الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون.



ويجعل ثانِ الفئة التي اعتنقت الإسلام، واحتفظت ببعض الطقوس الوثنيّة هي الغالبة في أفراد المجتمع في غرب أفريقيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين[١]. ويقول ثالث: «البوادي لم تتأثر كثيراً بالإسلام، وهذه الظاهرة تمثل أوّل مظهر من مظاهر تعثر الدين الحنيف بالمنطقة»[٢]، ويقول آخر: «المعروف أنّ اعتناق الإسلام في غربي أفريقيا كان سطحياً، وعلى الأقلّ في أوّل انتشاره»[٣].

إن من قال بهذا إنّما خلط بين المسلمين والوثنيين الذين قد يستعينون بالتعاويذ الإسلامية مع تعاويذهم الوثنية، ويلجؤون إلى شيوخ المسلمين، بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين، ولا يترددون في تقليد الصلوات الإسلامية، وحضور المساجد والجنائز والاحتفال بالأعياد والمناسبات الإسلامية، بل جرت عادة بعضهم بإخفاء وثنيتهم لظهروا بمظهر الرقي والتقدم؛ لأن المجتمع الوثني قد تعارف على أن الإسلام صنو لهما أخلاقياً، واجتماعياً، ونفسياً[٤]، وتلك ظواهر يلحظها قلة من الباحثين في تاريخ انتشار الإسلام في هذه القارة، وهي أمور تحدث إلى يومنا هذا، فحسبهم أولئك الباحثون مسلمين، وما هم كذلك، بل وثنيون.

ولا يلزم من هذا ألاّ يكون في المسلمين ضعاف نفوس يذهبون إلى السحرة، لكن الخطأ والمبالغة في الحكم على الجميع وفي إظهارهم بأنهم لم يتأثروا بالإسلام.

من تلك الظواهر: أنّ مِنْ ملوك هذه الممالك والإمبراطوريات الأفريقية مَنْ يكون مسلماً، ثم يأتي بعده من أُسرته مَنْ على الوثنيّة؛ وذلك قبل تحوُّلها كليّة إلى ممالك إسلاميّة ملكاً وشعباً، فإذا جاء بعض الدارسين ليتحدّث عن هذه المملكة كان تركيزه على تحوّلها كلية إلى إسلامية فيصور تصرفات هؤلاء الملوك الوثنيين، أو المداهنين لشعوبهم المسلمة على أنّها تصرفات من ملوك مسلمين، ثم يسم المسلمين عامّة بأنّ إسلامهم كان سطحياً أو نموذجاً أفريقياً، وأنّهم مع إسلامهم يمارسون تقاليد وثنيّة[٥].

ومنها: ما يتعلق ببعض المعتقدات عند الأفارقة لا يلحظها كثير من الدارسين، تنبّه لها قلّة منهم؛ وجدوا أنّ للإسلام صلة وثيقة بنفسيّة الأفريقي، وتقارباً كبيراً إلى عقليّته وفطرته[٦]، و «أنّ نظرتهم العامة إلى الحياة، وكثيراً من طقوسهم الروحيّة يمكن أن تصبح شعائر إسلاميّة، وأن تتحوّل إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير»[٧]، وهي من عوامل سرعة تقبّلهم للإسلام حتى في العصر الحديث.

فسبب التشويه ـ هنا ـ عدم فهم بعض الظواهر التي يجدها الباحث في الساحة الأفريقية؛ وبرغم هذا يطلق عنان قلمه للتشويه من غير ما تثبُّت ورويّة

(١) انظر: الشيخ عثمان بن فودي والحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشمالي (لجمهورية نيجيريا الاتحاديّة) د. محمد أحمد الحاج /٣٣٩ (ضمن بحوث ندوة العلماء الأفارقة) جعل هذه الفئة في المرتبة الثانية بعد الوثنيين الأصليين الذين بقوا على الوثنيّة، وآخرهما الذين اعتنقوا الإسلام بدون أيّ خلط بينه وبين غيره.

(٢) الإسلام والمجتمع السوداني / ٢٣٠، وانظر: ١٣٤.

(٣) حركة التجارة والإسلام / ٢٠٣.

(٤) انظر: حركة التجارة والإسلام /١٤٩ وأفريقيا الغربية في ظل الإسلام، نعيم قدّاح /٢٩.

(٥) انظر: دولة مالي الإسلامية، د. إبراهيم طرخان /٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، وحركة التجارة والإسلام / ٢٠٣ وقارن بين ما ذكره هنا وبين ما ورد في ص ١٤٩، ١٥٠.

(٦) انظر: أفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام / ٩٥.

(٧) حركة التجارة والإسلام / ١٤٩، وانظر: ١٥٠.



ليفصلّ الإسلام بعد ذلك على مقاس يسمّيه «نموذجاً أفريقياً» أو «إسلاماً أسوداً» أو «إسلاماً سطحيّاً»؛ بسبب تلك الظواهر التي لم يفهمها، أو بسبب بعض المخالفات والمعاصي التي لا يكاد يخلو منها مجتمع إسلاميّ من غير أن نجد ذلك التصنيف نفسه في غير أفريقيا، أو ترديداً لبضاعة غربيّة؛ فالاستعمار وكتّابه لـمّا أرادوا التهوين من أثر الإسلام وحضارته وثقافته في أفريقيا روّجوا لـ «إسلام سطحيّ» و «إسلام أسود»، وهم يقصدون بهما أنّ إيمان الأفريقي شيء ظاهر يستر وراءه وثنيّته القديمة[١]، فتلقّف عنهم هذه البضاعة المستغربون والمغرضون من غيرهم.

وهذه الصفة إنّما تنطبق على علاقة المسيحية بالوثنية في أفريقيا؛ فهي التي أخذت بمبدأ تلقيح نفسها بالوثنية والعادات الأفريقية، والخلط بينها، والتمشي معها، وكل ذلك أمر واضح في المنطقة، بل أخذت تداهن المسلمين في بعض المناطق الإسلامية بالتخفي وراء أسماء و ألقاب إسلامية قديماً وحديثاً؛ وذلك بأن يحتفظ من يتنصر من الأُسر الإسلامية بأسمائهم الإسلامية، فظهر في السنغال محمد إنجاي، وفي مالي قاسم كيتا واستعمال النصارى في بعض المناطق للقب «الحاج» المنتشر بين المسلمين، وله عندهم مدلول ديني واجتماعي رفيعان[٢].

ولو ألغينا جانب الترجمة لتعاليم الإسلام، واشترطنا الفهم المباشر لما يُقرأ ويقال بالعربية لأخرجنا ملايين المسلمين من الإسلام في القديم والحديث!

ومن غير المعقول أن تُكوِّن تلك الأمور التي ذكرها د. الغربي وغيره ظاهرة عامة في كلّ القرى والبوادي، ولا في جميع المراحل؛ لأنّ التحول العظيم في المجتمع الأفريقي في هذه المنطقة نحو قبول الدين الإسلامي المتسامح في تعاليمه والواضح في مبادئه نتج عنه «نمط جديد من الجمع بين القيم الإنسانيّة الأفريقية السليمة الراشدة، وثقافات أبناء المنطقة وحضاراتهم النظيفة وبين النبع الثقافي والحضاري الأصيل للإسلام؛ فظهرت آثار ذلك كلّه في شتى نواحي الحياة لدى سكان المنطقة»[٣]. وما كانت مرونة الإسلام في الإصلاح، ولا ملاءمته لكلّ زمان ومكان، ولا تدرجُّه في التغيير استكانة وضعفاً[٤]، ولا نموذجيّة خاصة بجنس دون جنس، أو مكان دون آخر، وإنّما تلك كلّها من وسطيّة الإسلام وواقعيته وعوامل انتشاره وقوّته.

ثم ألا يكون مردّ وجود ما ذكره إلى طبيعة سكان البوادي في كلّ زمان ومكان؟ «والإسلام ليس ظاهرة بداوة في أصله حتى تتركز الأنظار أولاً على البدو ... الإسلام ظاهرة حضر واستقرار ينتقل منها إلى البدو»[٥]، ألم يقل القرآن الكريم عن سكان

(١)انظر: أفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام/ ١١١.

(٢) انظر: الإسلام في الدولة العلمانيّة مالي، الشيخ شيرنو هادي عمر تيام / ١٠٧، ١٠٨، ط١ عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م بماكو، مالي. ولقب «الحاجّ» في القاموس الديني والاجتماعي بغرب أفريقيا، لكاتب هذه السطور، مجلّة الحجّ والعمرة (جدّة) سنة ٥٨ عدد١١ ذو القعدة ١٤٢٤هـ - ديسمبر - يناير ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤م، ص ٥١.

(٣) أسكيا الحاج محمد / ١٧٦.

(٤) انظر: انتشار الإسلام في غربي أفريقيا / ٥٨.

(٥) مجلّة دراسات أفريقية، المركز الإسلامي الأفريقي، عدد١ رجب ١٤٠٥ه - أبريل ١٩٨٥م ص ٣٧، بحث «الأصالة التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية في غرب أفريقيا» البروفوسير عثمان أحمد.



البوادي: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧ – ٩٨]؟ ثم قال عن طائفة منهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩]؟.

أرأيت كيف شهد الله لهذه الطائفة من فرقة الأعراب بصحة ما اعتقدت، وبتصديق رجائها؟ وكيف استأنف النظم القرآني بحرفي التنبيه: «ألا» للاهتمام بها ليعيها السامع، والتوكيد والتحقيق «إنّ»، وكلاهما يؤذن بثبات الأمر وتمكّنه، وبإزالة الشك والإنكار، وبالاحتجاج للقضيّة، وأكّد فوزهم ونجاتهم بـ «السين» الذي يفيد تحقيق الوعد، فما أدلّ هذا الكلام بذلك كلّه على رضا الله ـ تعالى ـ عن هذه الطائفة وعن عملها!![1].

فكيف نغبنها حقّها بهذا التعميم الذي يحصرهم جميعاً في فرقة واحدة، وأين الباحث من المنهج الإسلامي في هذا التقسيم العدل، البعيد عن التعميمات، المراعي للواقع في قوله ـ تعالى ـ عن الأعراب ـ أيضاً ـ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠١ – ١٠٢].

لست بحاجة إلى التذكير حول هذه الآيات بالمقولة المجمع عليها «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، كما أنّ ظهور عادات لا تمتّ إلى الإسلام بصلة في تنصيب السلطان أو غيره كان في نطاق ضيّق، وفي طور معيّن، أو مكان دون مكان، وربما يكون سببها الجهل، أو أنّه لم يظهر للقوم رأي الدين فيها في ذلك الوقت، ولا أدلّ على صحة هذا من مسارعة العلماء والسلاطين إلى إنكار البدع والتقاليد التي يظهر لهم مخالفتها للدين الإسلاميّ، كما هو الحال لأسكيا محمد وغيره، وكذلك ابنه أسكيا داود الذي استجاب لإنكار أحد الفقهاء ظاهرة التتريب[2].

يقول آدم عبد الله الآلوري عن ملوك الإمبراطوريّات الإسلاميّة في غرب أفريقيا: إنّ «أكثر أولئك السلاطين علماء وفقهاء، وإذا لم يكن السلطان نفسه عالماً فقيهاً اتخذ أحد العلماء المبرزين وزيراً يدير له الدولة على وفق الشريعة، ولا بدّ من هيئة شوريّة على شكل لجنة الفتوى من كبار العلماء والفقهاء»[3]. وكان السلاطين والملوك يحترمون هؤلاء العلماء والفقهاء، ويزورونهم في بيوتهم، ويستفتونهم، ويشاورنهم في شؤون الدولة وما تتعرض له من أخطار، ويأتمرون بأمرهم[4].

وذكر البكري أنّ سنغاي (أهل كَوْكَوْ) لا يُملِّكون عليهم أحداً من غير المسلمين، وإذا ولي منهم ملك دُفع إليه خاتم، وسيف، ومصحف[5].

ولو سلّمنا برأي هؤلاء المشوِّهين والمتجاهلين للحقائق فلن يبقى للإسلام تاريخ ناصع في العالم

(١) انظر: تفسير «الكشّاف» للزمخشري ٢/ ١٦٩ مكتبة المعارف بالرياض، بدون.

(٢) انظر: أسكيا الحاج محمد / ٧٤، و الإسلام والمجتمع السوداني / ٢٣٢

(٣) الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني / ٧٤، ط٤ عام ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

(٤) انظر: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضاريّة حتى القرن السادس عشر الميلادي، د. الشيخ الأمين عوض الله، / ٩٧ تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (مرجع سابق)، وأفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام / ١٧٥.

(٥) انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب / ١٨٣

كلّه بعد القرون الثلاثة الأولى؛ لوجود البدع و الخرافات والمخالفات الشرعيّة والعقدية في كلّ المجتمعات الإسلاميّة على تفاوت وفي أطوار مختلفة من غير أن نجد تفصيل الإسلام على مقاسها كما يراد في حال أفريقيا!!؟ أو لم يكن من عادة المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) إجبار مَنْ يدخل على السلطان على الركوع والسجود، ثم تقبيل الأرض بين يديه؟[١] حتى إنّ ملك مالي منسا موسى (٧١٢ ـ ٧٣٧ هـ ١٣١٢ـ ١٣٣٧م) في طريق حجّه تفادى الدخول على سلطانهم في أيامه كي لا يقوم بذلك، وكثيراً ما توتّرت علاقاتهم مع غيرهم بسبب هذا التقليد. وهنا لا يريد بعض الباحثين ـ مع موازنته بين الأمرين ـ أن يُحرِج أحداً بالسؤال «عمّا إذا كان الإسلام قد أخفق في احتواء الذهنيّة المصريّة بسبب هذا التقليد»؟ فيرى القفز على المسألة[٢]. فأقول له: إنّ التنبيه على المنكر لتفاديه أو لإعطاء صورة عن بعض المظاهر والأمراض الاجتماعية المخالفة للشرع مما لا ينبغي فيه التحرّج، بشرط تناولها في إطارها الزماني والمكاني، وعدم التعميم أو التحريف، ولا تخصيص منطقة بها دون أخرى، أو تفصيلها على مقاس جنس دون غيره.

ومن مظاهر ذلك الجانب التشويهي الذي يحاول أن يقلل من شأن الأثر الصحيح والقويّ للإسلام في المنطقة: ما يزعمه كثير من الباحثين ـ في مبالغة ـ من تأثير الصوفيّة ،كقول أحدهم: «يكاد الانتماء إلى الطريق يكون جزءاً من تديّن الرجل، والتبعيّة إلى شيخ أو مقدّم من أهل الطريق تعدّ صفة من صفات أيّ أفريقي مسلم، سواء في الغرب أو الشرق، إلى جانب صفته الرئيسيّة كمسلم»[٣]. ويقول ـ أيضاً ـ: «السنّة تسود غرب أفريقيا؛ إذ إنّ جميع سكّان غرب أفريقيا سنيّون على المذهب المالكيّ ... كما أنّ سنيّة الناس هناك لا تتعارض مع انتمائهم للطرق الصوفيّة المختلفة»[٤]. وإذا كانت المغالاة واضحة في جعل كل سكان هذه المنطقة سنيّين فإنّ التناقض واضح ـ أيضاً ـ في كلامه؛ وما ذهب إليه من أنّ سنيّة الناس لا تتعارض مع الطرق الصوفيّة إنّما ينطبق على مفهومه هو لأهل السنّة وليس المفهوم السائد عند المسلمين في المنطقة، ولا في غيرها، ويدلّ على ذلك بعض الشخصيات الذين مثّل بهم[٥] في الإصلاح الديني والتعليمي بإنشاء مدارس غير مشوبة ببدع الصوفيّة ـ كما يقول هو ـ والمعروف عنهم الثاني دون الأوّل. والأغرب أنّ الباحث نفسه يذكر فيما بعد[٦] الإصلاح العقدي والتعليمي الذي قام به بعض روّاد النهضة السنيّة الحديثة من قادة الاتحاد الثقافي الإسلاميّ، والأحداث التي تعرّض لها أهل السنّة في مالي وغيره عام ١٩٥٧م، أُحرق

(١) انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (الباب السادس) أحمد بن يحي العمري، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي / ١٠٧، ١٠٩، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، عام ١٩٨٦م.
(٢) الإسلام والمجتمع السوداني / ٢٣٢، وانظر: ٢٣١
(٣) المدّ الإسلامي في أفريقيا، محمد جلال عبّاس /٧٥، المختار الإسلامي، القاهرة، ط١ عام ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م. أرّخ تاريخ كتابة مقدّمته ب ـ «كانو، نيجيريا، ٢٥ / ٨ / ١٩٧٥م».
(٤) المرجع نفسه / ٧٣ ـ ٧٤، وكذلك زعم انتشار الإسلام في المنطقة على يد الخوارج أو الشيعة أو الأشعرية، وقد عرضت لذلك كلّه بتفصيل ومناقشة أوسع في بحث آخر لّما يُنشر، بعنوان «مدخل إلى دراسة مذهب أهل السنّة والجماعة، نهضته الحديثة والمعاصرة في غرب أفريقيا، الروافد والمعوِّقات والحلول».
(٥) انظر: المدّ الإسلامي / ١١١.
(٦) انظر: المرجع نفسه / ١١٢ ـ ١١٣.



فيها مساجدهم ومساكنهم وممتلكاتهم؛ فلِمَ تلك الأحداث إذا كان الأمر على ما وصف؟!!!

ولا يخفى عليك أنّ الدافع - هنا - المبالغة في التعميم والعجلة في الحكم من غير تصوّر حقيقي وشامل استغلالاً لعقل القارئ الذي يجهل تاريخ الإسلام في المنطقة، أو لم يقف على هذه الأحداث، واستناداً على زيارة الكاتب لبعض أجزائها في دولة أو دولتين والانبهار بقوّة طائفة في هذا الجزء في طور معيّن، فيقيس - مع الفارق - ما لم يزره أو يشاهده على ما زاره وشاهده ليحكم حكماً عاماً على الإسلام والمسلمين من منطلق دراسة ميدانيّة، كما سمّاها في مقدّمة كتابه، وما هي كذلك، وإلاّ كيف وقع في المبالغة بجعل كلّ سكّان المنطقة سنيّين، والتناقض والخلط في ذلك؟

إنّ الحضور الناصع للإسلام وأثره المنير، والتغيير الكبير الذي أحدثه في الناس دينياً واجتماعياً، وكذلك مظاهر انفعال أبناء المنطقة مع العقيدة الإسلاميّة عبر تاريخه[1]، والصراعات بين أهل السنّة وغيرهم، وسنة الله في التدافع كل ذلك يُفنِّد هذه المقولة التي جاءت نتيجة تأثر عاطفي بقوة الصوفية ونفوذها في بعض أجزاء أفريقيا في مقابل ضعف غيرها، وفي طور معيّن من أطوار هذا التاريخ الإسلاميّ بعد سقوط الممالك الإسلاميّة وسيطرة الاحتلال الأوروبي؛ «فقد كانت التربة السودانيّة أكثر خصوبة في التفاعل مع العقيدة الإسلاميّة، وأكثر تجاوباً معها. على هذا المستوى ربما يكون السودانيون قد فاقوا غيرهم من المسلمين في بقيّة الأقطار الإسلاميّة، وذلك بالنظر إلى الصعوبات والعراقيل الجمّة التي اعترضت مسيرة الإسلام في بلاد السودان»[2].

ثم كيف يكون ما تقدّم حالاً عامّة في كلّ الأطوار، وقد دخل الإسلام المنطقة من أواخر النصف الأول من القرن الأوّل الهجري؟ فقال الشيخ أحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ - ١٦٢٧م): إنّه لم يكد يمضي عام (٦٠هـ - ٦٧٩م) حتى كان في مدينة كومبي صالح - عاصمة إمبراطورية غانا - اثنا عشر مسجداً!! وقبله ذكر البكري وجود هذا العدد في الجزء الذي يسكنه المسلمون من المدينة، ولهم فيها أئمة وفقهاء وحملة علم، كما أنّ في مدينة الملك مسجداً يصلّي فيه مَنْ يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكمه، وتولّى بعض التجّار المسلمين مناصب إداريّة عليا في مملكته، وكان منهم تراجمة الملك وصاحب ماله وأكثر وزرائه[3]. وذكر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م) أنّها تتكوّن من جزءين على حافتي النهر ومن أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمراً[4]، وأنّ عقبة بن نافع افتتح حوالي (٤٦هـ - ٦٦٦م) (كاوار) من تخوم السودان[5] تقع

(٣) انظر: الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا، سماتها وانتشارها «د. شوقي الجمل ص ٦١ مجلّة الدراسات الأفريقية، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، عدد ٨ سنة ١٩٧٩م بحث». والإسلام والمجتمع السوداني / ٢٠٣ - ٢٠٥.

(٤) الإسلام والمجتمع السوداني / ٢١١.

(١) انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب / ١٧٥، ١٨٧ وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون المسمّى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر / ٢٤٧٩، دار ابن حزم، بيروت، ط١ عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

(٥) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٥/٤١٩ دار صادر، بيروت، عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي ١ / ٢٨ تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و. إ. ليفي. بروفنسال، دار الثقافة بيروت، بدون، وتقع (كاوار ٩ حالياً ضمن حدود جمهورية النيجر ناحية الجنوب الشرقي من حدودها مع تشاد.



قرب بحيرة تشاد، وأرسل مجموعة من جيشه إلى البربر والملثمين والسودان ليعلموهم القرآن والفقه.

نقل آدم الآلوري عن الشيخ عبد الله بن فودي (ت ١٢٤٤هـ - ١٨٢٨م) أنّه تواتر لديهم عن الثقات العلماء دخول الإسلام إلى غربي أفريقيا من القرن الأوّل الهجري على يد عقبة بن نافع[١]، وزاد أنّ عقبة لـمّا حجزه البحر عن المواصلة غرباً دخل في طريق عودته بلادَ غانا وتكرور، فأسلم على يديه بعضهم «وفي ذلك ما يسوغ قول ابن فودي؛ إذ ليس ما يمنع عقبة من السير صوب الجنوب في بلاد السودان كما منعه البحر عن السير صوب الغرب»[٢]، وأنّ منْ الأمويين الذين هربوا بعد سقوط الدولة الأمويّة في الشرق مَنْ «تغلغلوا في بلاد السودان، واختبؤوا بها حتى الممات، وطويت أسماؤهم في سجل النسيان»[٣].

أفليس من المستحيل أن يكون على طريقة من طرق الصوفيّة عقبةُ وجيشه، أو من أرسلهم إلى السودان، أو التجّار وهؤلاء الأمويون؟ بلى! ولسبب يسير وهو أنّ الصوفيّة لـمّا تظهر؛ إذ ظهرت بداياتها في العراق في القرن الثالث الهجري؛ ولأنّ الطائفة المنصورة - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) - هي التي فتحت سائر المغرب كمصر، والقيروان، والأندلس، وغير ذلك، وكانت في أيامه أقوم الطوائف بدين الإسلام علماً وعملاً وجهاداً عن شرق الأرض وغربها[٤].

ومن ثمّ كيف يمكن القول: «ارتبط انتشار الدعوة الإسلاميّة في غرب أفريقيا بانتشار الطرق الصوفيّة»[٥]؟.

من الأسباب والدوافع - أيضاً - ما يتمثل في جهل كثير من أبناء الإسلام بالحضارة الإسلاميّة في المنطقة، وبدور شعوبها في الحركة الإصلاحيّة والعلميّة والثقافيّة، وعلاقاتها السياسية والدينية والاقتصادية بالعالم الخارجيّ في القرون الوسطى الأوروبية إلى سيطرة الاحتلال الأوروبي على المنطقة.

وبعض من يهتمّ بها ينظر إليها بعين العدوّ، ويتزوّد بمعلوماته المشوّهة على أنّها مسلّمات أو بدهيّات لا تحتاج إلى تمحيص وتحقيق. ذلك العدوّ الذي لا يزال يُنقّب في الأرض عسى أن يعثر على آثار فيها إيماءة إمّا إلى أسبقيّة المسيحيّة إلى المنطقة، أو إلى عدم التأثير الإسلاميّ فيها، ولا يتورّع عندما تضيِّق الأدلّة التاريخيّة والنقليّة عليه الخناق منْ وسْم الإسلام فيها بنحو «إسلام أسود» أو «إسلام سطحيّ».

وقد يعتمد ذلك المهتم على تقارير عجلى من زيارات خاطفة لا تستند إلى سند معرفي صحيح في تاريخ الإسلام بالمنطقة، ولا مخالطة قويّة للمسلمين، وقد تقتصر الزيارة فقط على جزء من مدينة أو مسجد أو مدرسة إسلاميّة، أو على لقاء بعض المسلمين الذين قد يقدمون لهم صورة الإسلام

(١) انظر: الإسلام في نيجيريا، آدم عبد الله الآلوري / ١٧ - ١٨، نقلاً من كتاب «تزيين الورقات» لعبد الله بن فودي، لم أتمكن من الوقوف عليه.

(٢) الإسلام في نيجيريا، آدم عبد الله الآلوري / ١٨ - ١٩.

(٣) السابق نفسه / ١٩، وقد نقل د. عبد الفتاح الغنيمي مثل هذا عن البكري، وأن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد أرسل عام ٩١هـ جيشاً عربياً إسلامياً لفتح تلك الأنحاء، وأن ذرية هذاالجيش قد استقرت في تلك البلاد. أنظر: حركة المدّ الإسلامي في غربي أفريقيا ص ٢٢٥ مكتبة نهضة الشرق، مصر، بدون ت، ن.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمعه عبد الرحمن بن قاسم ٢٨ / ٥٣٢ عالم الكتب، الرياض، عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(٥) انظر: الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا، سماتها وانتشارها، د. شوقي الجمل، مجلّة الدراسات الأفريقية ص ٤٤.



في البلد من وجهة نظرهم فقط، وقد تتوافق هذه الزيارة مع مناسبة معيّنة لطائفة تقوم على بدع وخرافات ومخالفات دينيّة، ومن ثمّ يُصْدِر الزائر حكماً عامّاً مبرماً على الإسلام والمسلمين جميعاً. والغريب مع هذا كلّه أنّ هذه التقارير العجلى قد يُنظر إليها على أنّها بحوث علميّة منقحة، أو دراسات ميدانيّة، ثم تستغلّ وثائق إدانة لا تحتاج إلى تثبُّت وتبيُّن وتدقيق.

ومما وطّد ذلك الجهلَ المعاصرَ: ما يسود وسائل الإعلام من تشويه متعمّد للقارة بتصويرها ـ كلّها ـ في صورة غابة من المرضى عقلياً وجسميّاً وحضارة وثقافة ومعيشة، أو غابة للمتقاتلين لأتفه سبب، ولسان الحال يقول ـ في مقدمة سهلة ـ: إذا كان هذا شأنهم في القرن العشرين أو الحادي والعشرين فما عسى أن تجد عنهم في القرون الأوروبية الوسطى؟ وتكون النتيجة الحتمية لهذه المقدّمة عليكَ بعالم غير أفريقيا.

قريب من السبب السابق ما تجده لدى بعض القوميين العرب المعاصرين من التجاهل بمحاولة إنكار وجود أيّة علامة للحضارة في المنطقة قبل مجيء الإسلام وقيام إمبراطوريّاتها فيها شأن بعض الغربيين؛ إمّا جهلاً، أو محاولة لطمس فضل ودور أبنائها. يقول د. صالح أبو دياك: «من الواضح أنّ مصادر التاريخ الأفريقي لجنوب الصحراء الكبرى قليلة؛ نظراً لتأخر انتشار الحضارة في هذا الجزء من العالم»[١]. وإذا كان أبو القاسم بن حوقل البغدادي (ت ٣٧٩هـ ـ ٩٨٨م) ذكر ـ كما نقل عنه د. أبو دياك ـ أنّ سكان السودان الغربي مهملون، لا يستحقون إفراد ممالكهم بما ذكر به سائر الممالك[٢]؛ فقد قال بنقيض قوله تماماً مَنْ قبله، ومَنْ عاصره، ومَنْ جاء بعده؛ ففي «العصور التاريخية المختلفة ظهرت في ربوع تلك القارة عشرات من المجتمعات الإنسانيّة التي كانت لها حضارات وثقافات مختلفة، ولكنّها حضارات أفريقية الأصل والجذور، ويمكن دراستها دراسة تحليلية لمقارنتها بالحضارات الأخرى القديمة التي كانت تزاملها في الزمان، وإن اختلفت معها في المكان»[٣]. واليعقوبي أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر الكاتب العباسي (ت ٢٨٤هـ)[٤] ـ في حديثه عن ممالك السودان الغربي التي كوّنها الأفارقة في غرب أفريقيا، وعن عظم شأنها وقوّتها[٥] ـ يقول عن سنغاي: «ثم مملكة الكَوْكَوْ (والكوكو اسم المدينة)، ودُون هذه عدّة ممالك يعطونه الطاعة، ويقرّون له بالرئاسة على أنّهم ملوك بلدانهم» ولمّا أحصى ثماني ممالك ـ منها مملكة صنهاجة، وأرور، ووصف بعضها بأنّها واسعة ـ أضاف «فهذه كلّها تنسب إلى مملكة الكَوْكَوْ ... ثم

(١) مجلة: دراسات (الأردن) «العلوم الإنسانية والاجتماعية» مجلد ٢٣ عدد٢ ربيع الأوّل ١٤١٧هـ ـ آب ١٩٩٦م ص ٢٥٣ بحث «مؤثرات الحضارة الإسلامية في السودان الغربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري».

(٢) انظر: المرجع السابق / ٢٥٣ نقلاً عن صورة الأرض لابن حوقل ص ١٩، لم يتيسر لي الوقوف عليه في هذه العجالة.

(٣) الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، جون جوزيف / ١٥، وانظر: ٣٤، ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١ عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

(٤) تاريخ الوفاة المذكور هو الذي عليه أكثر الباحثين، وقيل ٢٩٢هـ ـ ورجحه الزركلي، انظر: الأعلام ١/٩٥، وقد تجوّل اليعقوبي في الشمال الأفريقي وبخاصةّ أيام الدولة الرستميّة.

(٥) جاء ذلك في حديثه عن السودان وهجرتهم قبل الميلاد بآلاف السنين من شرق أفريقيا، وأنّهم بعد عبور نهر النيل تفرقوا فاتجه قوم نحو الجنوب، وآخرون نحو الغرب وكوّنوا لهم ممالك منها ما ذكر أعلاه. وما ورد لديه يكشف حقائق كثيرة عن أقدم هذه الممالك وضرورة إعادة ترتيبها تاريخياً، وقد ناقشت الأمر في بحث آخر، أسأل الله التوفيق والسداد في إظهاره.



مملكة غانا، وملكها ـ أيضاً ـ عظيم الشأن، وفي بلاده معادن الذهب، وتحت يده عدّة ملوك»[١] وأشار إلى مملكة مالي، ولم يذكر عنها شيئاً[٢].

ويذكر معاصر ابن حوقل، المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ ـ ٩٥٧م) أنّ السودان بعد تجاوزهم نيل مصر وتفرّقهم في الأرض «سار فريق منهم نحو المغرب (أي غرب أفريقيا) وهم أنواع كثيرة ... وكَوْكَوْ، وغانا، وغير ذلك من أنواع السودان»[٣].

وقد ورد مثل هذا عن الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٦٠ هـ)[٤]، ونقله القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م) عن صاحب «الروض المعطار»[٥]. وكلّ ذلك يردّ ـ أيضاً ـ على ما زعمه الحسن بن محمد الوزّان (ت ٩٥٧ هـ ـ ١٥٥٠م) من أنّ المؤرخين والجغرافيين القدماء ـ أي الذين سبقوه، وكتبوا عن أفريقيا أمثال: البكري، والمسعودي ـ لا يعرفون شيئاً عن بلاد السودان ما عدا الواحات وغانا، وأنّ هذه البلاد اكتشفت عام ٣٨٠هـ ـ باعتناق (لمتونة) البربرية وكلّ (ليبيا) للإسلام[٦].

وقد يحاول كلّ واحد من هؤلاء القوميين العرب حصرَ فضل التاريخ الإسلامي في المنطقة على الدولة العربية التي ينتمي إليها: المغرب، ليبيا، الجزائر، مصر، تونس ...الخ[٧].

يقول أحدهم في مقدّمة كتابه: «وأعترف عندما كنت أطوي المرحلة تلو الأخرى في البحث والتنقيب أنّني لم أستبعد وازعاً وطنيّاً أخشى بأن أتهم بأنّه هو الذي حركني أصلاً في عملي هذا»[٨].

وصل الأمر ببعض المعاصرين من هؤلاء القوميين إلى القول بالتلازم بين قوّة الإسلام وازدهاره في أفريقيا وبين التصاهر للعرب وهجراتهم إليها وبين ضعفه فيها وعدم مصاهرتهم، ومن ثمّ انطلقوا لتعليل ضعف الإسلام المعاصر فيها بعدم وجود مصاهرة بين الطرفين. في حين يرى آخر أنّ الاتصال عن طريق المساكنة والزواج يبدو ضعيفاً[٩]. ومهما يكن فالسؤال المهم هو: ما حال الإسلام في العالم العربي نفسه؟، وقد «كان واضعو لبنات تلك الحضارة علماء أفارقة، على خلاف ما يشاع من أنّ انتشار الإسلام كان بفعل

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٣ ـ ١٩٤، وانظر: ١٩١ دار صادر بيروت، ط٦ عام ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) انظر: المصدر نفسه ١/ ١٩٣.

(٣) مروج الذهب للمسعودي ١/ ٣٢٩، دار الكتاب اللبناني، ط١ عام ١٩٨٢م.

(٤) انظر كتابه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١/ ٢٨ طبعة جامعة نابولي، إيطاليا.

(٥) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٥/ ٢٨٥ نسخة مصوّر عن الطبعة الأميرية، بدون. والروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري ت ٧٧٦هـ.

(٦) انظر: وصف أفريقيا / ٥٣٣ ترجمة د. عبد الرحمن حميدة، ط١ عام ١٣٩٩هـ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة. وتناقله عدد من الباحثين من غير تمحيص. انظر: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ٨٧ هامش ١، و ١٣٦، نقلاً عن بوفيل Bovill E . W في كتابه: The Golden trade of M ص ٥٦، جامعة أكسفورد ١٩٥٧م.

(٧) اقرأ ـ مثلاً ـ الحكم المغربي في السودان الغربيّ، د. محمد الغربي، وكان في الأصل رسالة دكتوراه أشرف عليه د. نقولا زيادة، ودور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، د. عصمت دندش، دار الغرب الإسلاميّ بيروت ط١ عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م. وبحث: المغرب في خدمة التقارب الأفريقي العربي، د. عبد الهادي التازي، وبحث: العلاقات بين المغرب وأفريقيا جنوبي الصحراء كيف نفسر أحداث التاريخ؟ د. علي القاسمي...

(٨) بداية الحكم المغربي / ١٣.

(٩) المرجع نفسه / ٧٥٠.



عرب أو بربر»[١] سواء أولئك العلماء الذين تعلموا في المنطقة، أم أولئك الذين رحلوا في طلب العلم، ثم عادوا، أم التجّار الذين يتنقلون بين المنطقة وغيرها أو بين أسواق مدنها وقراها استقروا فيها أم لا؛ إذ هناك فرق بين دخول الإسلام وانتشاره؛ فالأوّل يمكن أن يقوم به أيّ مسلم، والثاني يحتاج إلى معرفة لغات المنطقة لإيصال تعاليم الإسلام إلى أهلها والانتشار في القرى والأرياف لا الاكتفاء بالمدن الحضريّة.

يؤيد ذلك عدد العلماء الذي حشده ملك «جنّي» كي يعلن إسلامه أمامهم؛ فقد جعل السعدي العدد (٤٢٠٠ عالم)، ويبعد المبالغة عن هذا العدد أنّ (جنّي) كانت تتكوّن مع توابعها من سبعة آلاف قرية، كما ذكر السعدي نفسه[٢]. وحيث إنّ الإسلام للناس كافّة فإنّ تاريخه وحضارته في المنطقة وفي غيرها وَسِع - ولا يزال - مختلفَ الأجناس والشعوب، أدلوا فيهما بدلائهم؛ فذلك من طبيعة الإسلام، وشموليّته، وعالميّته، وواقعيّته.

وتارة يعلل أولئك القوميون لضعف الإسلام المعاصر في المنطقة بدخوله السلميّ إليها؛ فيقال لهم: فما بالُ أجزاء العالم الأخرى التي فُتِحت بالقوّة قد ضعف الإسلام فيها؟ وتارة بدرجة أعلى مما يُتصور في أفريقيا؟!.

وتارة أخرى يجعلون الحضارة الإسلاميّة في المنطقة «حضارة مغربيّة زنجيّة» و«حضارة مغربيّة عربيّة» و«حضارة مغربيّة أندلسيّة»، كانت الرغبة في إيصالها إلى مجاهل القارّة دافعاً جديداً وقويّاً في انتقال الإسلام إلى أبعد الجهات[٣]. أرأيت إيصال هذه الحضارة إلى مجاهل القارة هو الدافع لانتقال الإسلام إليها، وليس الإسلام هو الذي نقل الحضارة إليها، حتى حلق الشعر وتناول وجبة العشاء من آثار الحضارة المغربيّة[٤]؟ ما هي المجاهل التي وصلتها الحضارة المغربية لنشر الإسلام؟ أم هي المراكز التجاريّة والمدن المشهورة التي سبقت بعضها المغرب إلى الإسلام؟

كما صار كثير من الموضوعات والبحوث ذات الصلة بتاريخ وحضارة المنطقة يُرفض الكتابةُ فيها في الدراسات العليا في بعض الدول كالمغرب وليبيا - مثلاً - ما لم تركز على جانب تأثير هذه الدولة أو تلك - إن حقاً أو باطلاً - في الموضوع المدروس، ولو اقتضى الأمرُ لَيَّ الحقائق بقوّة القِسْم العلميّ وكليّته وجامعته وسياسة دولته على منهاج الدراسات الغربية التي لا ترتاح إلاّ لنفي الحضارة عن المنطقة قبل الاحتلال وجيوشه، أو نفي تأثير الإسلام فيه أو تهوينه، وإبراز أثر دول الاحتلال في تاريخها، واستحسان أفاعيله، وإيجاد مسوِّغات إنسانيّة وحضاريّة وقانونيّة لها مهما كانت سيّئة عقلاً ونقلاً. ومن المعلوم أنّ نفي أولئك للحضارة عن أفريقيا قبل الاستعمار يهدف من جانب آخر إلى نفي الحضارة الإسلاميّة فيها، وإلاّ كيف يستقيم إقرارهم بوجود الإسلام في القارّة قبل الاستعمار مع القول: بأنّها لم تكن تعرف الحضارة حين احتلّوها؟ ومنهم من علّل لانتشار الإسلام فيها بأنّه وجد مجتمعات لا حضارة لها[٥].

وعلى مذهب دي لافوس القاضي بـ «إنكار الدور

(١) انتشار الإسلام في غربي أفريقيا / ٤٤.
(٢) انظر: تاريخ السودان / ١٢، ١٣.
(٣) انظر: بداية الحكم المغربي / ١٣، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧١.
(٤) انظر: المرجع نفسه /٦١١، ٦١٢.
(٥) انظر: أفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام / ٨.

الحضاريّ للعرب في السودان الغربي، وتفسير كلّ فعاليّتهم في المنطقة على أساس استغلالي»[1] وعلى منهاج القوميين الأفارقة «دعاة الزنجيّة»[2] ومعهم بعض علماء الآثار الأفريقيين الذين لا يترددون في عدّ انتشار الإسلام وحضارته احتلالاً عربياً بحدّ السيف قضى على حضارة زنجيّة أفريقية، أو عدّ عصور حضارته الذهبية في المنطقة امتداداً لحضارة حوض البحر المتوسط الأوروبي ...الخ على الرغم من الأثر القويّ والبروز الواضح والمميّز للإسلام وثقافته وتاريخه وحضارته في عصور تلك الممالك والإمبراطوريات.

من أسباب ذلك التشويه: أهداف الدارسين ومبتغاهم التي كثيراً ما تُلوِّن الحقائق بألوان من الرغائب «فتصورها تصويراً يتوافق مع تصوّرات مسبّقة خدمة لأهداف محددة معلومة، هي عند أصحاب النوايا الخبيثة خطة مدروسة، ومناهج مرسومة نابعة من قلوب تطفح بالبغضاء للإسلام وأهله وشعوبه وأرضه ابتغاء تشويه الفكر الإسلامي وتطبيقه في ماضيه»[3]، أو ينطلق بعض الدارسين من مبادىء وطنية للدولة التي ينتمي إليها، ومن نظريات سياسية وفلسفات فكرية اعتنقها، ويريد تفسير أحداث التاريخ بها، وما أكثر ما تجد في هذا من الغرائب المضحكة المبكية، ومن الأحكام المسبّقة، ولَيِّ الحقائق الثابتة! فقال د. زبادية عن أمثالهم «في الواقع كثيراً ما تمكّنت في توجيههم مآرب أو مبادىء معيّنة؛ فجاءت أبحاثهم لا تقنع الباحث النزيه»[4]، هذا إن لم تشوّه التاريخ وحقائقه.

اقرأ - مثلاً - مسوِّغات الغزو المغربي لإمبراطورية (سنغاي الإسلاميّة) في غرب أفريقيا عام (٩٩٩هـ - ١٥٩٠م) فليست المسوِّغات التي ذكرها د. عبد الهادي التازي عاطفية فحسب، وليست التفسيرات التي قدّمها اتباعاً للهوى وليّاً للحقائق فقط، بل وصلت إلى درجة التشكيك في الهدف الحقيقي من أداء الناس لفروض دينهم كالحج؛ إذ جعل الهدف الحقيقي لحجّ الملك (أسكيا محمد) سياسياً يتمثل في الحصول على لقب (خليفة على السودان) من الخليفة العباسيّ[5]. فكأنّ الحجّ لا يكون خالصاً لله إلاّ إذا كان من شخص عاديّ مغمور، أو كأنّه لـمّا ينزل قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [**الحج**: ٢٦ - ٢٨].

وتارة يجعل د. التازي تعميق الشعور العربي في المنطقة آثاراً إيجابية لهذا الغزو، ومن مسوّغاته لذلك الغزو: تخوُّف المغرب من تدخل أجنبي أعجميّ - يقصد الدولة العثمانية - في المنطقة، وتثبيت العلاقات العربية

(١) ص ١٥٧ Les noirs de L, Afrique , Dealfosse . M. payot, Paris 1922 وانظر: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٠.

(٢) كما عند ليو بولد سنغور رئيس السنغال الأسبق ورفاقه عن الحضارة الزنجية - الأفريقية، انظر: تقريره الذي قدّمه للمؤتمر الثاني للكتّاب والفنّانين الأفارقة في روما، ٢٦ مارس - ١ أبريل عام ١٩٥٩م بعنوان: العناصر الأساسية المكوِّنة لحضارة ذات أصول زنجية إفريقية Elemenets constitufs d, une civilisations d, inspiration africaine. ترجمه إلى العربية ونشره مع دراسة نقدية له د. عبد الله أحمد بشير بولا في كتاب بعنوان: العناصر الأساسية المكوّنة للحضارة الزنجية الأفريقية أم للفكر الأفريقي المغترب؟، منشورا مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، عام ١٩٨٨م.

(٣) انتشار الإسلام في غربي أفريقيا / ٤٥.

(٤) مملكة سنغاي في عهد الأسقيين / ٨ ولم يسلم منها انظر: ٢٥، ٢٦، ٣٨، ٨١، ١٠١.

(٥) انظر بحثه: المغرب في خدمة التقارب الأفريقي العربي ص ١٠٦ العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية، تونس، عام ١٩٨٥م.



الأفريقية[١]، في حين يتغافل عن الوثائق المغربية التي أفادت التعاون بين منصور الذهبي (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م) وبين ملوك أسبانيا وبريطانيا والبرتغال على إسقاط إمبراطورية (سنغاي الإسلاميّة) ـ وعن الهدايا التي أغدقوه بها ـ ويتجاهل أنّ معظم قوّاد هذا الجيش أسبان؛ إمّا نصارى، أو يهود متنصِّرون، ودلّت في الواقع على التوطيد لمرتزقة أوروبيين أسبان تلك حالهم[٢].

تأمَّلْ أيّها القارئ! تصوير شيخ الإسلام ابن تيمية لنفوذ النصارى في المغرب قَبْل هذا الغزو بأكثر من قرنين ونصف ليزول عنك الاستغراب؛ ففي وصف أحوال العالم الإسلامي في أيّامه، وبعد ذكر اليمن والحجاز وشمال أفريقيا يقول: «وأمّا المغرب الأقصى فمع استيلاء الإفرنج على أكثر بلادهم لا يقومون بجهاد النصارى هناك، بل في عسكرهم من النصارى الذين يحملون الصلبان خَلْق عظيم»[٣].

ولقد أخذت أسبانيا تهتمّ بتنبكتو، وغاو، وبباحثي تاريخ المنطقة من أبنائهما خاصة كي يُعنوا بتاريخ أولئك، بل تبنّت أحدهم وهو (إسماعيل جاجي حيدرة) الذي يعيش فيها، ووفرت له كلّ الوسائل ليكتب بالأسبانية بحوثاً ودراسات تتعلق بهم ـ إن حقاً أو باطلاً ـ وبتاريخهم في الأجزاء الشرقيّة والشماليّة من مالي[٤]، ويزورهما ـ (أي الأجزاء الشرقية والشمالية) ـ في السنة آلاف السيّاح الأسبان وغيرهم من الأوروبيين والأمريكان.

(١) انظر: المرجع السابق / ١١٠ ـ ١١١، ١١٤ ـ ١١٦.

(٢) انظر: بداية الحكم المغربي / ١٠٥ ـ ١٠٦، ١٤٠، ١٤٤ ـ ١٤٦، ١٤٧، ٣٧٧، ٥٦٩. وتاريخ أفريقيا السوداء من أمس إلى غد، ج. كي. زيربو ١/ ٣٣١ ترجمه عن الفرنسية يوسف الشام، منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٩٤م، والحضارات الأفريقية، دينيز بوليم / ٧٣ ترجمه عن الفرنسية نسيم نصر، منشورات هويدات، بيروت/ باريس ط٣ عام ١٩٨٨م والمدّ الإسلامي في أفريقيا / ٤٧. وانظر الأسباب الحقيقية وآثارها السيئة من جميع النواحي في: بداية الحكم المغربي / ١١٧، ١٣١ ـ ١٣٢، ١٣٤، ١٥٧ ـ ١٦١، ٥٧٢، وإمبراطوريّة سنغاي د. إبراهيم طرخان / ٩٨ ـ ١٠٠، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض (سابقا) مجلد ٨ عام ١٩٨١م، وبحث «العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وإمبراطورية سنغاي بغرب أفريقيا» د. محمد النقيرة في: مجلّة جامعة الإمام، كليّة الشريعة بالأحساء عدد ١ سنة ١ عام ١٤٠١هـ ـ ١٤٠٢هـ ـ ص ٦٤٠ ـ ٦٤٢، والحياة العلمية في دولة سنغاي، محمد ألفا جالو / ٣٠٧ ـ ٣٣٦ رسالة ماجستير في الحضارة والنظم، جامعة أمّ القرى، كلية الشريعة، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضاريّة، عام ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. والحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي د. أبو بكر إسماعيل ميغا /٢٣٦ ـ ٢٥٨، ط١ عام ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، مكتبة التوبة بالرياض. وإمداد الصحوة الإسلاميّة بخلاصة تاريخية محررة عن إمبراطوريّة سنغاي الإسلامية، د. جبريل المهدي ميغا /٣٢٩ ـ ٣٤١ (غير منشور)، ومجلّة دراسات (الأردن) مرجع سابق / ٢٥٨ وحركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي أفريقيا / ٢٣٦، وأعداد جريدة الرياض بتاريخ ٧ ربيع الآخر ١٤١٣هـ ـ أكتوبر ١٩٩٢م، وبتاريخ ١١ محرم ١٤١٥هـ ـ يونيو ١٩٩٤م. وانظر: مقال سينان أندرياميرادو في مجلّة «أفريقيا الفتاة» عدد ١٨٧٩ ٨ أغسطس / ١٤ يناير ١٩٩٧ ص ٢٠ ـ ٢٢، ترجمته رابطة العالم الإسلامي بتاريخ ٢٨/ ٦/ ١٤١٨هـ.

Senne Andriamirado " Jeune Afrique " no 1879 , du 8 AU / 14 Janvier 1997 , page : 20 22-

وقد تلقّبوا في المراحل الأخيرة بألقاب مشهورة في المنطقة، انظر: مقال سينان أندرياميرلدو في مجلّة «أفريقيا الفتاة» (مرجع سابق) وانظر: استعمال النصارى قديماً وحديثاً لبعض الألقاب والأسماء الإسلامية المشهورة تخفياً وراءها، في: الإسلام في الدولة العلمانيّة مالي، الشيخ شيرنو هادي عمر تيام / ١٠٧، ١٠٨، ط١ عام ١٤١٤ه ـ ١٩٩٣م، بماكو، مالي.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٣٢، وانظر في قوّة اليهود والنصارى أيام الدولة المرينيّة ٥٩١ ـ ٩٥٧هـ ـ ١١٩٥ـ ١٥٥٠م، وأيّام السعديين والمنصور الذهبي: مجلّة الاجتهاد عدد ٣٤ ـ ٣٥ سنة ٩، شتاء وربيع ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ص ٩٣ ـ ٩٤، ٩٩ بحث «دور يهود الجنوب المغربي في تجارة القوافل الصحراويّة» محمد أرحو، وبداية الحكم المغربي / ١٥٧ ـ ١٦١.

(٤) انظر عن جهوده: مقال سينان أندرياميرلدو في مجلّة «أفريقيا الفتاة»، (مرجع سابق هامش٩١).



في آخر سفر لِي إلى هذه المدينة الغالية «تنبكتو» صيف عام ٢٠٠٠م وفي رحلة العودة بالسيارة إلى مدينة دُوَنْزا - على بعد مائتي كيلو متراً على الطريق المعبَّدة التي تربط جنوب مالي بشمالها، وشرقها بغربها - وما أدراك ما في السفر بالسيارة إلى هذه المدينة التي أصبحت كأنّها «جزيرة بريّة»!. إنّ السفر إليها إذا لم يتمّ جوّاً - رحلتان في الأسبوع - فيا له من معاناة! ومشقة سفر مضاعفة نفسياً وبدنيّاً؛ فكلّ الطرق البرية إلى هذه المدينة العزيزة صحراويّة بمعنى الكلمة؛ ودليلك الخبير بها آثار السيارات. أمّا السفر إليها عبر نهر النيجر فلا يمكن إلاّ في أغسطس إلى نهاية السنة - غالباً - ومع ذلك كلّه ترى وفود السيّاح الغربيين إليها بالآلاف في رحلات بريّة وفي عزّ الصيف والرياح الموسميّة الحارّة المصحوبة بالغبار في أغلب الأوقات، وأحياناً بأمطار موسميّة تسقي الزرع، وتزيد ماء النهر، وتُلطّف الجوَّ والنفْسَ وعناءَ استنطاق التاريخ، وقد تُعفي رسوم الطريق السالكة.

كان معنا في هذه الرحلة بعض السيّاح الأسبان، فذكروا لنا أنّ أسبانيا تُعِدّ لأن يزور (تنبكتو) في عام ٢٠٠١ م ثلاثة آلاف سائح أسباني، فلمّا استكثرنا هذا العدد، وسألنا عن السبب؛ جاء الجواب: لاستعادة ذكريّات أجدادهم الذين استولوا على هذه المنطقة، وكوّنوا في هذه المدينة مرتكزاً لسيادتهم قبل الاستعمار الفرنسيّ.

ثمّ أَنْعِمْ النظر في التنافس الأوروبي والأمريكيّ - بل تعصبهما - ليكون لكل واحد منهما أيّ أثر تاريخي في هذه المنطقة الإسلاميّة، وبخاصة هذه المدينة التاريخية العلمية، مع التنقيب عن أثارة من علم يومىء إلى ذلك. توجد في هذه المدينة بيوت كتب على أحدها «هنا سكن أوّل بريطاني وصل إلى تنبكتو عام ١٨٢٦م - ١٢٤٢هـ، ودفع حياته ثمناً لتنبكتو» وفي الواقع لم يدفع حياته ثمناً لهذه المدينة بل قُتِل؛ لأنّه خالف العادات والتقاليد الإسلاميّة. وبيت آخر كتب عليه «هنا كان يسكن أوّل فرنسيّ وصل إلى تنبكتو عام ١٨٢٨م» - أي عام ١٢٤٤هـ - دخلها عن طريق موريتانيا بعد أن تسمّى بـ «عبد الله»، ولبس لباس المسلمين كي لا يناله ما نال البريطاني قبله. فلمّا لم يعرف الأمريكيون المكان الذي نزل فيه أوّل أمريكي زار المدينة عام ١٩٠٥م جاؤوا، ووضعوا لافتة على أحد الأماكن البارزة والمهمّة، كتبوا عليها «هنا مرّ أوّل أمريكي دخل تنبكتو»، وكان دخلها آتياً من الجزائر. أرأيت كيف التعصب لمجرّد ورود إشارة إلى أيّ أثر أو أثارة من علم عنه؟ أرأيت كيف أنّ مجرّد المرور بها مدعاة إلى الاهتمام والفخر ونوع من إرضاء الغرور؟ فيكف بأسبانيا التي لا يخلو كتاب تاريخ عن المنطقة من ذكر جهود الأسبان في إسقاط إمبراطوريّة (سنغاي الإسلاميّة) على يد الجيش المغربي؟!

أمّا د. زبادية فقد جعل حجّ (أسكيا محمد) سياحة استطلاعيّة الغرض منها: اكتساب خبرات بالاطلاع على أحوال ممالك الشرق وطرق تسييرها، وضمان الأمور المعنويّة من وراء الحجّ في أعين شعبه[1]. والحق أنّه «ليس بغريب على الرجل أن يستهدي بتعاليم الإسلام في نظم حكمه؛ فقد كان مسلماً مخلصاً، وتقيّاً ورعاً، وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء، يأكلون ويشربون معه، ويستشيرهم في كلّ الأمور عن رأي القرآن والسنّة حتى أصبحت هذه السياسة الإسلاميّة سياسة مقررة لخلفائه»[2].

(١) انظر: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين / ٣٦.

(٢) حركة التجارة والإسلام / ٢٣٩ وانظر ما قاله عنه محمود كعت في تاريخ الفتاش / ٥٩.



وأمّا د. علي القاسمي فقد ضرب بعرض الحائط الأسباب الحقيقية[١] والتي تحدّث عنها نخبة ـ كما يقول هو ـ من الباحثين المتخصصين المرموقين «قدموا من أسبانيا وأمريكا وبريطانيا وكندا ومصر، ومن البلاد الأفريقية المعنيّة: السنغال، وغينيا، والكاميرون، ومالي، وموريتانيا، والنيجر، ونيجيريا، إضافة إلى باحثين وأساتذة من عدد من الجامعات المغربية» قدموا للمشاركة في ندوة دولية بمراكش أقامها معهد الدراسات الأفريقية بجامعة محمد الخامس في ٢٣ ـ ٢٥ أكتوبر ١٩٩٢م. لا يجمعهم سوى البحث عن الحقيقة، ولا يمكن تواطؤهم على الكذب، لكنّ تجاهل الحقائق أو تلوينها بالرغائب والهوى، وبالمبادئ الوطنيّة والقوميّة تُعمي.

يقول حماه الله ولد السالم: «الممالك السودانيّة المسلمة في غرب أفريقيا ـ إمبراطورية مالي ثم مملكة سُنغاي ـ كانت تشرف سياسياً على الأجزاء الجنوبيّة الشرقية من موريتانيا الحاليّة وأحوازها»[٢]. فما الدولة التي كانت مسؤولة عن الجوانب الدينيّة، والإداريّة، والاجتماعية، والاقتصاديّة؟ وأين مملكة غانا، وقد كانت عاصمتها وأبرز مراكز قوّتها في موريتانيا الحالية؟. استمع إليه يحدد لك المجال الشنقيطي «نعني بالمجال الشنقيطي منطقة أوسع من الحدود السياسيّة لموريتانيا اليوم، حيث تشمل عدّة مناطق من غرب الصحراء الكبرى، يشترك سكّانها ونخبها العلميّة مع مختلف مناطق موريتانيا الحاليّة في اللغة، والتقاليد والعادات، والمؤثرات التاريخية الواحدة، وهذه المحددات تمثل «فضاءً ثقافياً» أصبح سكانه يعرفون بالشناقطة نسبة إلى بلادهم التي تعرف ببلاد شنقيط»، ثم رسم خارطة وهميّة لهذا المجال[٣].

لكن ماذا عن الجماعات الأخرى التي يجمعها الإسلام ثم لكلّ جماعة لغتها والمحددات التي ذكرتها كسنغاي، والطوارق، والفلاتة، والسونينكي (السراكولي)؟ علماً بأنّ الأخيرتين تكوّنان نسبة كبيرة في موريتانيا الحالية، والسونينكي ـ كما تقدّم ـ هي التي أسست مملكة غانا وكان مركزها معظم أراضي موريتانيا الحالية. ثم إنّ الشناقطة ـ ويقصد بها المجموعة العربية: الحسّانيين والكُونتا[٤]ـ نسبتهم قليلة في مناطق مالي والنيجر والسنغال التي جعلها ضمن المجال الشنقيطي قديماً وحديثاً؛ ففي هذه المناطق من مالي والنيجر يغلب سنغاي ثم الطوارق، وفي مناطق السنغال وجنوب موريتانيا يغلب السونينكي والفلاتة. أمّا الإقليم في جنوب الصحراء الجزائرية (توات) فأستغرب في جعله فقط ضمن المجال الشنقيطي متجاهلاً غيره من أقاليم الجنوب الجزائري على الأقلّ[٥] لعلّه أدرك أنّ غالبيّة سكّانها من الطوارق وهم البربر في الجزائر والمغرب.

ويقول: «خضعت عدّة مدن شنقيطيّة مثل: ولاتة، وتنبكتو لإمبراطوريّة مالي، ثم لوريثتها مملكة

(١) انظر بحثه: العلاقات بين المغرب وأفريقيا جنوبي الصحراء، كيف نفسر أحداث التاريخ؟ مجلّة: التاريخي العربي، (المغرب) عدد ٥ شتاء ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٨.

(٢) أوضاع الحجاز في الرحلات الحجيّة الشنقيطيّة، الدارة عدد ٤ سنة ٢٢ عام ١٤١٧هـ ـ ص ٢٩.

(٣) المرجع نفسه / ٥٢ هامش ١، ٦٤.

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٥٦ هامش ٢٠.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ٥٥ هامش ١٥، والخريطة ص ٦٣.

السنغاي قبل أن تنهار الأخيرة أمام الزحف المغربي المظفّر على تنبكتو سنة ١٥٩١م»[١].

سأكتفي بإحالته هو والقارئ الكريم على ما تقدّم من مصادر ومراجع[٢] للتأمّل في الأسباب الحقيقية لما سمّاه «الانهيار أمام الزحف المغربي المظفَّر» وفي آثاره السيئة على المنطقة دينياً، واجتماعياً، وثقافياً، وسياسياً، واقتصادياً.

ثم أقول: إذا كانت مدينة شنقيط قد تأسست - كما يقول هو - عام ٦٦٠هـ - ١٢٦١م[٣] فأين كان الشناقطة قبل هذا التاريخ؟ وكيف تكون ولاتة وتنبكتو من مدن شنقيط، وكلتاهما أقدم منها؟ وقد تأسست الأولى من القرن الأوّل الهجري تقريباً والأخرى عام ٤٨٠هـ - ١٠٨٧م.

إمعاناً منه في الغبن يزعم أنّ ركب الحاجّ الشنقيطي كان عشوائياً في ظلّ تلك الممالك السودانية الإسلاميّة[٤]، وأوقع نفسه في التناقض والغبن حين قال: إنّ أوّل مَنْ حجّ من أهل مدينة شنقيط - حسب الروايات المحلّيّة - هو جدّ الفقيه الشنقيطي أحمد بن أحمد بن الحاج العلوي، الملقب «أكَد الحاج، «ت ١٠٨٦هـ - ١٦٧٥م»[٥] - أي بعد سقوط آخر تلك الممالك والإمبراطوريّات -!!! أيُعقل هذا من مدينة تأسست في التاريخ المذكور آنفاً وفي ظل ممالك إسلاميّة متوالية ينطلق منها ركب الحجّ في اتجاهات مختلفة ومن جميع شعوبها، وشهد بذلك القاصي قبل الداني، والعدوّ قبل الصديق؟ أجزم أنّك ظلمت أهلها في أحد أركان دينهم، كما ظلمت التاريخ الإسلامي في المنطقة، لكنّه نتيجة السعي في الغبن فهو يعمي عن الحق، نسأل الله العفو والعافية.

ومن مظاهر التشويه بسبب أهداف الدارسين ومبتغاهم التي تلوِّن الحقائق بألوان من الرغائب والهوى، أو المبادئ الوطنيّة والنظريات السيّاسيّة والفلسفات الفكرية التي اعتنقوها: جهدُ المرابطين المغالى فيه من قِبَل كثير من الدارسين بجعلهم الروّاد الأوائل في نشر الإسلام بغرب أفريقيا لدرجة طمس جهود غيرهم ممن سبقهم أو عاصرهم أو جاء بعدهم، كما فعلت الدكتورة عصمت دندش في كتابها «دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا»[٦]، بل محو الوجود الإسلامي في المنطقة الذي سبق المرابطين بأربعة قرون. فالمرابطون إنّما ظهروا عام (٤٣٤هـ) أي في أواخر المرحلة الأولى لانتشار الإسلام في غرب أفريقيا وهو ما بين (٢٠ - ٤٤٣هـ) حسب تقسيمات بعض الدارسين[٧]، وكان استيلاؤهم على مدينة (أودغيست) الغانية عام

(١) المرجع نفسه / ٥٣ هامش ٩. وقد تقدّم في ص ٢٠ هامش ٦٤ من هذه الدراسة أنّ ما ورد لدى اليعقوبي في حديثه عن ممالكي سنغاي وغانا ومالي يكشف حقائق كثيرة عن أقدم هذه الممالك وضرورة إعادة ترتيبها تاريخياً، وناقشت الأمر بتفصيل في بحث آخر، أسأل الله التوفيق والسداد في إظهاره.

(٢) انظر: هامش ٢ ص ١٦.

(٣) انظر: الدارة (مرجع سابق) / ٥٤ هامش ١٠.

(٤) انظر: المرجع السابق / ٢٩

(٥) انظر: المرجع نفسه / ٣٠

(٦) دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ عام ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

(٧) انظر: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، د. شوقي الجمل ود. عبد الله إبراهيم /٨٥، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦م.



٤٤٧هـ[١]. «ولقد كان للثقافة الإسلاميّة العربية أثر واضح في حكومة غانا القديمة قبل دخول المرابطين؛ فالمسلمون هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة؛ لذلك كانوا يساعدون الملوك الوثنيين... فهذا أكبر دليل على انتشار الثقافة الإسلاميّة، فإذا كان هذا هو الحال قَبْل استيلاء المرابطين عليها فمن المتوقع أن تتوسع تلك الثقافة، وتنتشر بعد أن أصبحت مملكة غانا إسلاميّة»[٢].

وصل الغلوّ إلى الزعم بأنّ الالتزام الشديد بتعاليم الإسلام في السودان الغربي - كأداء فروض الشريعة إلى أبعد الحدود، والمواظبة على الصلوات في الجماعة، وضرب الأولاد عليها، وازدحام المساجد بالمصلين، والحرص الشديد على حفظ القرآن، واستفتاء الفقهاء، والأمان في المساجد - الالتزام بكلّ ذلك كما ترى الدكتورة من نتائج التزام السودان بتعاليم زعيم المرابطين عبد الله بن ياسين (ت ٤٥١هـ - ١٠٥٩م) حتى بعد قرنين من عصر المرابطين[٣].

فهل هذه الأمور جديدة نزل إليهم بها الوحي؟ وبمَ كان سكان المنطقة يلتزمون من تعاليم الإسلام قبل ابن ياسين؟ ثم كيف نعلل التزام المسلمين بهذه الأمور في أجزاء العالم الإسلاميّ الأخرى التي لم يصلها تأثير المرابطين؟ وكيف يصح ذلك، وقد كان لبرقة، والقيروان الدور الأساس في انتقال التأثيرات الإسلامية إلى هذا الجزء من بلاد السودان؛ إذ كانت تربطهما بكوكيا[٤] طريق صحراوي مروراً بتادمكّة[٥]، فكان الفقهاء والدعاة يرتادونها؛ لذلك كلّه كان طبيعياً أن يعتنق أهل (سنغاي) الإسلام قبل غيرهم من السودانيين والطوارق[٦].

وقال المهلّبي (ت ٣٨٠ هـ) - فيما نقله عنه ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩م) - إنّ الإسلام انتشر بين أكثر أهل كَوْكَوْ (سنغاي) - وهم أمّة من السودان - وأصبح ملك البلاد يظاهر رعيّته به، وجميعهم مسلمون[٧]. يقول أحد الباحثين: «ففي الوقت الذي تمّ فيه تحوّل (صنهاجة) للإسلام في القرن (٣ هـ، ٩ م) - كما أخبرنا ابن خلدون - كان دعاة أفريقيا وفقهاؤها - المالكيون وغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى - يمارسون نشاطهم بين بلاد كَوْكَوْ»[٨].

ومثل ذلك الغلوّ: محاولة حصر معاناة المسلمين

(١) انظر تناقضها في أسباب الغزو ص ١١٢من الكتاب نفسه.

(٢) تجارة القوافل د. العراقي (مرجع سابق) / ١٥٦، وانظر مثل ذلك في: حركة التجارة والإسلام / ١٧٠ - ١٧١.

(٣) انظر: دور المرابطين في نشر الإسلام / ١٤٧، ١٤٨ - ١٤٩، وانظر: ٢٤، ٧٠، ١١٢، ٢٩٤. ممن قام بتفنيد هذا الغلوّ د. محمد عبد الله النقيرة في كتابه: التأثير الإسلامي في غرب أفريقيا، ط١ عام ١٤٠٨ه - ١٩٨٨م. ود. مسعود الوازني في بحثه «التواصل الإنساني وأثره في وحدة العقيدة بين شمال الصحراء وبلدان السودان الغربي حتى عصر المرابطين» حوليّات الجامعة الإسلاميّة بالنيجر عدد٢ عام ١٤١٧ه - ص ١٩٢ - ١٩٣، ١٩٤ وجبر الله الأمين ومدبولي عثمان في: حزام المواجهة حرب التنصير في أفريقيا / ٢٣، ٣٧، ٤٨ دار الذخائر، الدمام ط١ عام ١٤١٤ه - ١٩٩٣م، وحركة التجارة والإسلام / ١٧٠ - ١٧١، ١٧٦ - ١٧٩.

(٤) عاصمة سنغاي الأولى، وتقع إلى جنوب مدينة غاو، وتشتهر الآن ب - «بنتِيا».

(٥) انظر عن هذا الطريق الصحراوي: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب /١٨١، وتقع هذه المدينة في شمال مالي ضمن الإقليم الثامن «كيدال» جنوب شرق مدينة غاو حوالي ٤٠٠ كم تقريباً، إضافة إلى طريق آخر يمرّ بجنوب غاو إلى مدينة أغاديس في جمهورية النيجر الحالية.

(٦) انظر: الإسلام والمجتمع السوداني / ١٠٢ - ١٠٣، ١٠٥.

(٧) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤ / ٥٦٢ مادة (كوكو) تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٨) الإسلام والمجتمع السوداني / ١٠٥.



في المنطقة بمكايد أعدائهم داخلياً وخارجياً في قبيلة أو شعب ـ كما أراد أبو بكر عبد القادر سيسي في بحثه بمجلة «البيان» ـ[1]. وفيه طمس لعدّة حقائق[2] ومبالغات لا ينبغي أن نقع فيها مهما أردنا تصوير المعاناة، عافى الله جميع المسلمين منها في كلّ مكان. فمثلاً ما تعرض له المسلمون في أحداث ليبيريا وسيراليون لم تطل أبناء (الماندغ) فقط، وبخاصة سيراليون ـ كما أراد الكاتب أن يصوّره ـ[3] فأين الفلاتة وغيرهم من القبائل الإسلامية فيها؟ بخلاف ساحل العاج الذي يغلب فيه المسلمون من (الماندغ) مع أنّه قد عانى فيها ـ أيضاً ـ حتى وثنيون كما هو حال الكثير من جالية الموسي من بوركينا فاسو. و (الهوسا) أكبر تجمع بشري في غرب أفريقيا وليس (الماندغ)؛ فهم في نيجيريا وحدها يقاربون الخمسين مليون أو يزيدون. وهل صحيح «أنّ الشعب المضطهد كلّهم مسلمون»؟[4] لا يمكن التصديق بوجود مثل هذا الشعب على وجه الأرض!!!، ثم أين نسبة الوثنيين والنصارى منهم في كلّ الدول التي يوجدون فيها؟ وماذا عن أبناء هذا الشعب الذين تواطؤا مع الآخرين في اضطهاده، وبخاصة في ساحل العاج، وماذا عساهم أن يكونوا؟ وهل صحيح أنّ بين لغة (الماندغ) وبين الإسلام «التلازم الشرطي المنعكس في أفريقيا الغربية؟ ومن ثمّ معلوم بديهة أن تقليل نسبة الناطقين بهذه اللغة معناه مباشرة تقليل نسبة المسلمين في أفريقيا الغربية»، إن كان مثل هذا ممكناً ـ ولا يبدو كذلك ـ أفليست اللغة العربية أولى به؟، إذ بها المصادر الأولى للتعاليم الإسلاميّة، ولا يتمّ أداء بعض فروضه إلاّ بها.

أنا على يقين أنّه لو تناول غيره من قبيلة أخرى ممن ينظر هذه النظرة الضيّقة، وينطلق من هذه العاطفية لحصر ما ذكره في غير قبيلة (الماندغ)، كالفلاتة، والسنغاي، والسونينكي، وهي مع الماندغ، و (الهوسا)، و (صوصو)، و (الولوف) أبرز شعوب الإسلام في المنطقة.

وفي الختام: تلك نُبَذ مهمّة من مظاهر الجانب التشويهي المختلقة لتاريخ الإسلام في غرب أفريقيا ولأثره في الإصلاح الدينيّ، والاجتماعيّ، والثقافي، والحضاريّ. والدوافع المتنوِّعة إلى هذا التشويه من قِبَل مثقفين غربيين ومن تأثر بهم من أبناء المنطقة وغيرهم، ودعاة الزنجيّة، والقوميّون العرب...الخ. اقترنت تلك المظاهر والدوافع بالردّ على الشبهات، وتفنيد حجج المغرضين، وكشف أباطيلهم، وتبيين الحقائق ودعمها بالأدلة فذهب الزبد جفاء، وبقي ما ينفع الناس، والدين، والتاريخ، والحضارة؛ حيث تأكّد أثر الإسلام القويّ في حياة شعوب المنطقة من جميع النواحي منذ دخلها في النصف الأوّل من القرن الأوّل الهجري، وزرع بذرته في أرضها الخصبة فنمت، واستوت على سوقها، وبرز جهود

(١) السنة ١٨ عدد ١٩٣ رمضان ١٤٢٤هـ ـ نوفمبر ٢٠٠٣م ص ٧٨ ـ ٨٦ «اضطهاد القبيلة المسلمة العملاقة» وهو يقصد بها (الماندغ)، وتسمى ـ أيضاً ـ البمباره والجولا.

(٢) انظر: «البيان» ص ٧٨.

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ٨٢.

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٨٠.



شعوبها في انتشار الإسلام وترسيخ قدمه فيها؛ فأغاظ الكفّار والمنافقين والحاقدين فرموه عن سهم واحد، لكنّ الله سلّم وثبّت.

وحيث إنّ مجتمعها لم يكن ملائكياً ـ وحاشاه ـ فقد كان يُعكر طوائفُ صفوَه في أطوار وأماكن مختلفة؛ بسبب ضَعف الوازع والنازع الدينيين؛ فالأوّل يبعث على ملازمة الشرائع، والآخر يمنع من مخالفتها، وضعفهما في أيّ وقت ومكان، وعند أيّ جنس يعني وقوع بعض أفراده في المعاصي والمخالفات الشرعيّة بدرجات متفاوتة، وبقاء الكثرة على الحق؛ فمن الإجحاف أن يصير الإسلام بذلك «نموذجاً أفريقياً» أو «إسلاماً سطحياً» لم يحدث تأثيراً أو إصلاحاً كما يريد له أولئك القوم على اختلاف دوافعهم؛ فتلك سنّة الله في خلقه، ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّة واحدة على قلب أتقى رجل، لكن لله في خلقه شؤون، وللناس في النظر إلى أفريقيا عيون يعلو كثيراً منها غشاوة، وقلوب يرين عليها الهوى، وعقول لا يقودها البصيرة، وأقلام تسيل بالباطل. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

• المراجع:

١ ـ أسكيا الحاج محمد وإحياء الدولة الإسلامية للسنغاي، د. فاي منصور، رسالة دكتوراه من قسم التاريخ والحضارة، كليّة اللغة العربية، جامعة الأزهر، عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢ ـ الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، جون جوزيف، ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١ عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣ ـ الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، آدم عبد الله الآلوري، ط٤ عام ١٣٩٨ه ـ ١٩٧٨م.

٤ ـ الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطوريّة مالي، أحمد الشكري، ط١ المجمع الثقافي، أبو ظبي، عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٥ ـ الأصالة التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية في غرب أفريقيا، البروفوسير عثمان أحمد، مجلّة دراسات أفريقية، المركز الإسلامي الأفريقي، عدد١ رجب ١٤٠٥هـ ـ أبريل ١٩٨٥م.

٦ ـ اضطهاد القبيلة المسلِمة العملاقة، أبو بكر عبد القادر سيسي، مجلّة البيان «من المنتدى الإسلاميّ» السنة ١٨ عدد ١٩٣ رمضان ١٤٢٤هـ ـ نوفمبر ٢٠٠٣م

٧ ـ إمبراطوريّة سنغاي د. إبراهيم طرخان، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض (سابقاً) مجلد ٨ عام ١٩٨١م.

٨ ـ أفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام، نعيم قدّاح، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢ عام ١٩٧٥م.

٩ ـ إمداد الصحوة الإسلاميّة بخلاصة تاريخية محررة عن إمبراطوريّة سنغاي الإسلامية، د. جبريل

المهدي ميغا (غير منشور).

١٠ ـ انتشار الإسلام في غرب أفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي، د. عزّ الدين موسى، من بحوث ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية التي نظمتها في الخرطوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع جامعة أمّ درمان الإسلاميّة، ٢٨ ـ ٣٠ يوليو/ تموز عام ١٩٨٣م

١١ ـ أوضاع الحجاز في الرحلات الشنقيطيّة، حماه الله ولد السالم، مجلّة الدارة عدد ٤ سنة ٢٢ عام ١٤١٧هـ.

١٢ ـ بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، د. محمد الغربي، وزارة الثقافة والإعلام العراقيّة، دار الرشيد، بغداد ط١ عام ١٩٨٢م.

١٣ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة (ج. س. كولان)، و (إ. ليفي. بروفنسال)، دار الثقافة، بيروت، بدون.

١٤ ـ التأثير الإسلامي في غرب أفريقيا، د. محمد عبد الله النقيرة، ط١ عام ١٤٠٨ه ـ ١٩٨٨م.

١٥ ـ تاريخ أفريقيا السوداء من أمس إلى غد (ج. كي. زيربو) ترجمه عن الفرنسية يوسف الشام، منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٩٤م.

١٦ ـ تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، د. شوقي الجمل ود. عبد الله إبراهيم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦م.

١٧ ـ تاريخ اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب إسحاق، دار صادر بيروت، ط٦ عام ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٨ ـ تجارة القوافل بين شمال وغرب أفريقيا وأثرها الحضاري، د. السر سيد أحمد العراقي. تجار القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي لمجموعة من الباحثين، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر، الصفاة، الكويت.

١٩ ـ التواصل الإنساني وأثره في وحدة العقيدة بين شمال الصحراء وبلدان السودان الغربي حتى عصر المرابطين د. مسعود الوازني، حوليّات الجامعة الإسلاميّة بالنيجر عدد٢ عام ١٤١٧هـ.

٢٠ ـ الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الأفريقي، عمر محمد باه، مؤسسة الرسالة، ط١ عام ١٤٢٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢١ ـ حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب أفريقيا، د. مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، ط١ عام ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٢ ـ الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي د. أبو بكر إسماعيل ميغا، مكتبة التوبة بالرياض، ط١ عام ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٣ ـ حزام المواجهة حرب التنصير في أفريقيا، جبر الله الأمين ومدبولي عثمان، دار الذخائر، الدمام



ط١ عام ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٤ ـ الحضارات الأفريقية، دينيزبوليم، ترجمه عن الفرنسية نسيم نصر، منشورات هويدات، بيروت/ باريس ط٣ عام ١٩٨٨م.

٢٥ ـ الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا، سماتها وانتشارها، د. شوقي الجمل. مجلّة الدراسات الأفريقية، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، عدد ٨ سنة ١٩٧٩م.

٢٦ ـ الحياة العلمية في دولة سنغاي، محمد ألفا جالو، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم، جامعة أمّ القرى، كلية الشريعة، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضاريّة، عام ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٧ ـ دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، د. عصمت دندش، دار الغرب الإسلاميّ بيروت ط١ عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٨ ـ دولة مالي الإسلامية، د. إبراهيم طرخان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٣ه ـ ١٩٧٣م

٢٩ ـ رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار)، محمد بن بطوطة، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلميّة، بيروت، بدون.

٣٠ ـ الشيخ عثمان بن فودي والحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشمالي لجمهورية نيجيريا الاتحاديّة، د. محمد أحمد الحاج، من بحوث ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية، التي نظمتها في الخرطوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع جامعة أمّ درمان الإسلاميّة، ٢٨ ـ ٣٠ يوليو / تموز عام ١٩٨٣م

٣١ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشنديّ، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، بدون.

٣٢ ـ العلاقات بين المغرب وأفريقيا جنوبي الصحراء كيف نفسر أحداث التاريخ؟ د. علي القاسمي، مجلّة: التاريخي العربي (المغرب) عدد ٥ شتاء ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٣ ـ العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وإمبراطورية سنغاي بغرب أفريقيا، د. محمد النقيرة، مجلّة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، كليّة الشريعة بالأحساء عدد ١ سنة ١ عام ١٤٠١هـ ـ ١٤٠٢هـ.

٣٤ ـ العناصر الأساسية المكوّنة للحضارة الزنجية الأفريقية أم للفكر الأفريقي المغترب؟

د. عبد الله أحمد بشير بولا، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، عام ١٩٨٨م.

٣٥ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر بيروت، عام ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٣٦ ـ مؤثرات الحضارة الإسلامية في السودان الغربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، د. صالح أبو دياك، مجلة: دراسات (الأردن) «العلوم الإنسانية والاجتماعية» مجلد ٢٣ عدد٢ ربيع الأوّل ١٤١٧هـ ـ آب ١٩٩٦م.

٣٧ ـ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمعه عبد

الرحـــمن بن قـــاسم، عـــالم الكتب، الرياض، عـــام ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٣٨ ـ الـمـدّ المسلم في أفـريـقـيــا، مـحـمـد جــلال عبّـاس، المختـار الإسـلامـي، القــاهرة، ط١ عام ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٣٩ ـ مروج الذهب، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، دار الكتاب اللبناني، ط١ عام ١٩٨٢م.

٤٠ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (الباب السادس) أحمد بن يحي العمري، دراسة وتحقيق دوروتيا كـرافولسكي، المركز الإسـلامي للبحـوث، بيروت، عام ١٩٨٦م.

٤١ ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ عام ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٤٢ ـ المغرب في خدمة التقارب الأفريقي العربي، د. عبد الهادي التازي، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية، تونس، عام ١٩٨٥م.

٤٣ ـ المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك) أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، مكتبة المثنّى، بغداد، بدون ت، ن.

٤٤ ـ الملامح المغربية في الثقافة الأفريقية خلال القرن السادس عشر، د. محمد الغربي، مجلّة دعوة الحق (المغرب) عدد ٢٨٣ جمـادى الأولى والآخرة، عام ١٤٠٩هـ ـ يناير ١٩٨٩م.

٤٥ ـ مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، د. عبد القـادر زبادية، الشـركة الوطنيّـة للنشـر والتـوزيع، الجزائر، بدون.

٤٦ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسيّ، طبعة جامعة نابولي، إيطاليا.

٤٧ ـ وصف أفريقيا، الحـسن الـوزّان (ليـون الأفــريقي) تــرجـمـة د. عـبـد الرحـمن حـمـيـدة، جـامـعة الإمــام مـحـمـد بن سـعـود الإسـلاميّة، ط١ عام ١٣٩٩هـ.